

## العائلية السياسية فى أوروبا من أسرة البوريون إلى أسرة ساركوزى

د. سعيد اللاوندى

خبير فى الشؤون الأوروبية

سيطرت بعض الأسر المالكة على أقدار ومصائر القارة العجوز (أوروبا) وقد يكون الصحيح القول أن نظام الإقطاع "الذى يتحكم فى كل شىء بوصفه ملكية خاصة للحاكم هو نظام أوروبى بامتياز ومعناه: مجموعة الأخلاقيات والمثل التى تحرك الطبقة الحاكمة.. كما يعنى أشكال الحكومة اللامركزية التى تنتقل فيها السلطة الإدارية والعسكرية والقضائية إلى أيدي الإقطاعيين.

وأيا كانت هذه الأشكال، فالثابت أنها كانت أسلوب حياة النبلاء الأوروبيين منذ القرن التاسع (إن لم يكن قبل ذلك) وحتى القرن الثالث عشر (إن لم يكن بعد ذلك).

وأشهد أننى فى كل مرة كنت أمر فيها أمام (قصر بوريون) وهو مقر البرلمان الفرنسى (الجمعية الوطنية) فى باريس تقفز إلى ذهنى صورة هذه الأسرة العريقة (أسرة بوريون) التى كانت ولعقود زمنية متتالية مستودعاً لمعظم حكام أوروبا خصوصاً فى فرنسا والنمسا.. ولا شك أن عظمة هذا القصر تعنى -ضمن ما تعنى- "أن حكاماً" أفذاذ كانوا يسيطرون على مقاليد السلطة فى أرجاء بعض الدول الأوروبية القوية آنذاك.

ويؤكد نفر من المؤرخين أن تأثير هذا الإقطاع كان يتجاوز حدود القارة العجوز ويذهب إلى أن الحروب الصليبية التى اكتوى من نيرانها الشرق كانت فى جانب منها نتاجاً للقيم والمفاهيم التى تحكم عقول هؤلاء الإقطاعيين.

وكان طبيعياً أن تؤدى الحروب التى تورطت فيها هذه الأسر الحاكمة ودفعت ثمنها أوروبا، ثم البذخ الذى كانت تعيش فيه، وضعف الملوك، وعجز الوزراء عن ضبط إيقاع الحياة السياسية.. فضلاً عن تملل الطبقات

الأرستقراطية وأنانيتها وجبروتها.. كل ذلك أدى إلى انحدار دولة مثل فرنسا إلى حالة من الفوضى الاقتصادية تكررت كثيراً في دول مجاورة، وكان السبب الأول فيها انسلاخ الأسر الحاكمة عن الشعب، واعتمادها بدرجة أولى على الأموال التي يتفنن بعض وزراء المالية في السطو عليها من جيوب الشعب.. ولعل المثال الصارخ على ذلك ما قام به المدعو (كالون) الذي كان مسئولاً عن المالية الفرنسية عندما اقترح فرض ضريبة عامة على الأراضي والعقارات لا تستثنى منها الطبقة الأرستقراطية نفسها، لكن لأن معظم أبناء أسرة بوربون إلى جانب السادة النبلاء كانوا غارقين في الديون، فكان مستبعداً أن تلقى هذه الفكرة استحساناً، ولذلك سقط (كالون) ليخلفه (لوميني دي بريين) الذي عرض اقتراحات متشابهة على البرلمانات المؤلفة من القضاة المكلفين بتسجيل المراسيم، والذين كان من حقهم الاعتراض على القوانين في باريس وبعض البلاد الصغيرة ورفضت البرلمانات الاقتراحات وطالبت بانعقاد "مجلس الطبقات" وجاء ذلك على هوى الطبقة الأرستقراطية لأن هذا المجلس كان يتألف من ثلاث هيئات منتخبة تمثل إحداها الكليروس وتمثل الثانية النبلاء والثالثة تمثل الشعب.. وحيث كانت طبقة رجال الكنيسة (الكليروس) خاضعة لسيطرة النبلاء الذين يتقلدون المناصب الرفيعة في الكنيسة لقاء الخدمات التي يقدمونها، فقد كانت الطبقتان على يقين دائم من الحصول على أغلبية الأصوات..

وهكذا، وجد الشعب نفسه ضحية لأسرات تحكم، ونظام حكم (أجوف) يحرص على الشكل دون المضمون.

وربما هذا الحال الخائق هو الذي ساعد في تفاقم الأوضاع ومهد- فعلاً "لا قولاً"- للثورة حيث ملا الخطباء المقاهي، خصوصاً تلك المحيطة بالقصر الملكي (باليه رويال) وكانت الجماهير تحتشد على أبواب هذه المقاهي ونوافذها لتستمع في شغف إلى بعض هؤلاء الخطباء الذين كانوا يخاطبون جماهيرهم من فوق المقاعد والمناضد..

ويذكر كتاب باريس في سنوات الثورة لمؤلفه راي تاناهيل أن العيش بات عسيراً، فلقد بلغ رغيف وزنه أربعة أرطال حوال ١٤٥ سو وهو العملة الفرنسية التي كانت سائدة آنذاك وتعادل خمسة سنتيمات. بينما لا يتجاوز صافي الأجر اليومي لعامل البناء (١٨ سو)..

كان هذا الواقع سبباً إضافياً اقتنع العامة في باريس بأن الأرستقراطيين قد أوشكوا على سحقهم تحت نعالهم القرمزية.

والحديث عن الخبز في باريس يذكر- على الفور- بثورة الجياح التي عكرت صفو الملكة ماري أنطوانيت فسألت في دهشة عن سبب المظاهرات التي تحيط بقصر فرساي حيث كانت تقيم، فقيل لها: أن الشعب يطالب بالخبز، وهو يبحث عنه فلا يجده! فقالت قولتها الشهيرة "إذا لم يجد خبزاً فليأكل الجاتوه!.."

وفي كل الأحوال لقد بلغت نغمة الشعب الفرنسي حدها الأقصى فأتجه من فورة نحو سجن الباستيل وقام بتحطيمه في مشهد خارق لا تزال تحتفظ به الذاكرة الإنسانية ليسدل بعدها على أسرة بوربون الحاكمة.. ويبدأ عصر آخر.

ويروي أن مجموعة قوامها حوالي أربعين فرداً قد تقدمت وفتحت، لهم البوابة الرئيسية للسجن، ولكن

سرعان ما رفع الجسر المتحرك وذبحت المجموعة بأكملها على الفور. فزاد تفاقم الأوضاع. وطالب الشعب بالثأر، وسرعان ما وجه الحشد مدافعه صوب البوابة وفتحوا فجوة فيها اقتترنت بروح السخط التي سادت الموقف وأدت إلى استسلام الحصن على الفور.

ولاستكمال هذه المشاهد التي أعلن فيها الشعب الفرنسي رفضه للأسرة الحاكمة، والإقطاع وطبقة النبلاء، والأرستقراطية المتغطسة لأبد من التوقف أمام مشهدين:

الأول، هو مقتل الملك لويس التاسع عشر الذي كانت حاشيته تعتقد أنه الملك الإله، فبعد أن تم توجيه التهمة إليه بالخيانة العظمى ضد الأمة، كان لابد من سوقه نحو المشنقة.. ويذكر تاريخ الثورة وصفاً دقيقاً كالآتي:

تدفقت دماء الملك، وشقت صيحات الفرخ الصادرة من ١٨٠ ألف رجل مسلح عنان السماء.. وترددت الصيحات على طول الأرصفة.. وكان الناس يغمسون أطراف أصابعهم وقطع الورق في دمانه، ويتذوقها واحد ليقول: دمه كالح كريمة.

وفي كتاب باريس في سنوات الثورة الذي ترجمه إلهام عثمان، جاء هذا الوصف: إلى جانب المقصلة، يبيع جلاذ خصلاً من شعره، ويشتري الناس الشريط الذي كان يعقده به. كل إنسان يحمل قطعة من ثوبه أو تذكراً مخضباً بالدماء لهذا المشهد المأساوي! كانت الحشود تسير متأبطة ذراع بعضها البعض وهي تتضاح كأنها عائدة من مهرجان... لم يترك إعدام الملك أى انطباع، فتحت المسارح أبوابها كالمعتاد، وفرغت أبريق الحانات في الميدان الدموي، وعادت أصوات البائعين تتنادى على الكعك والفطائر حول الجثة المبتورة الرأس التي وضعت في سلة عادية كالتي توضع فيها رؤوس المجرمين العاديين. وتم حملها إلى مدفن "مادلين" حيث غطيت بسخاء بالجير الحى حتى يستحيل على كل ملوك أوروبا الحصول على اصغر تذكّار من رفاته.

الغريب أن تاريخ فرنسا المعاصر يذكر هذه المشاهد في شماتة ويرى أن الأمة الفرنسية وقفت فريسة لنظام حكم ملكي ظالم ترك للنبلاء حق استعباد الشعب. والتعامل مع أفرادهم كما لو كانوا عبيداً. فكان لابد من القصاص.

المشهد الثانى هو الملكة ماري انطوانيت تحت المقصلة.. حيث كانت عيناها -نادراً- ما تنظران إلى الجماهير، فإذا بها تنظر بعمق ومن حولها القوى المسلحة المؤلفة من ٣٠ ألف رجل.. تحدثت الملكة إلى القس الجالس إلى جوارها في خنوع محتشمة دون أن يبدو عليها كرب أو اكتئاب. وصعدت سلم المشنقة بسرعة ونفاذ صبر، وحلت ناظريها في أسى وتأثر صوب حديقة (تويلرى) مسرح مجدها الزائل. وفي الثانية عشرة والنصف، فصلت المقصلة رأسها عن جسدها. وحملها الجلاذ والدماء تتدفق منها، ليعرضها على حشود الجماهير الغفيرة المبهجة - والملتفة حول أركان المشنقة الأربعة.

صحيح أن الثورة الفرنسية عادت لتلتهم أبناءها، فلقى روبيسير الملقب بفتى الثورة الغر التأثير حتفه بذات المقصلة، وكذلك لقى آخرون نفس المصير، لكن يبقى أن الثورة طوت -إجباراً- صفحة أسرة (بوربون) التي حكمت فرنسا والنمسا فترات غائرة في جسد أوروبا.

ورغم ذلك فإن فكرة الأسرة الواحدة التي تمتلك الثروات وتمارس بشكل أو بآخر (إقطاعاً من نوع خاص في ميادين كثيرة ظلت ملحماً من الطلائع المجتمعية في فرنسا إلى يومنا.. فأُسرة الزعيم شارل ديغول لا تزال ترفض الحياة السياسية والعسكرية الفرنسية بشباب يدين بالفضل للرجل (رقم واحد) وهو شارل ديغول الذي أسال لعاب شباب الأسرة عبر الأجيال المتعاقبة ليكون من بينهم من تحمل الراية بعده.. لكن هذا الحال لا يرقى إلى مستوى (الإرث) لأن حكام اليوم يرون أن فرنسا لم تعد ملكية، ولعل هذا ما كان يعنيه الرئيس الفرنسي الحالي نيكولا ساركوزي عندما سئل عما إذا كان يتعبر نفسه وريثاً للديجوليين عبر سابقة جاك شيراك فأجاب: أنا لست وريثاً لأحد، أو امتداد له، وفرنسا ليست ملكية.

لكن ذلك لم يمنع ابنه (من زوجته الأولى) من أن تنخرط في العمل العام- ويقود مجموعة من الشباب والكهول ضمن دوائر المحليات الانتخابية.. ولكن لا يعرف مكان هذه الدوائر تعتبر مراكز تدريب أولية لرجال السياسة في بداية مشوارهم العملي. وكادت تفقد رئاسة حي لايفانس الشهير وابرز الأحياء المالية والاقتصادية في باريس لساركوزي الصغير، ووسط ضجيج إعلامي عن التوريث، بشكل أو بآخر، وعن الابن الذي يسير في نفس الطريق الذي سلكه الأب قبلاً، فوجئ الفرنسيون بأن ابن الرئيس ساركوزي يتعذر عن هذا الموقع السياسي الحساس.. وتذكر صحيفة لوباريزيان بأن ساركوزي الصغير ينأى أن يجعل والده لبانه! في فم خصومه السياسيين يلوكونها ليل نهار. وهو ما يعنى أن ضمن بطموحه السياسي من أجل أن تظهر صورة والده الرئيس خالية من العقوب.. وهى رديئة ناضجة، لكنها لا تعنى أن ساركوزي الصغير قد ضمن تماماً بطموحه السياسي، وإنما كل ما قام به هو عملية أرجاء، مفضلاً "شكلاً" من أشكال الكون أو البيات المؤقت.

والثابت عملاً أن الرئيس الفرنسي قد سعد كثيراً بقرار ابنه ووضع (موقفه) موضع الاعتبار والتقدير.. وهو عكس حالة أخرى عرفتتها الحياة السياسية في زمن الرئيس الفرنسي الأسبق فرانسوا ميتران، الذي لم يتردد لحظة واحدة في إسناد ملف القارة الأفريقية لابنه "كلود" الذي كان الحاكم والأمر الناهي في القارة السمراء، ويقال أن سياسة أفريقيا كان يرسمها هذا الشاب فارغ الطول في مكتبه الواقع داخل دهايز قصر الإليزية. ومعروف أن كلود ميتران كان تورط في أعمال كثيرة داخل القارة من بينها تجارة سلاح وسمسرة وعمولات.. وكذلك إسقاط حكام وفرض حكام آخرين.

وكانت بعض الصحف الفرنسية تتحدث عن ميتران الابن في لغة أشبه بالنمر والفخر، لكن ميتران (الرئيس) لم يكن يلقى بالأل لها.. كما كان الحال مع ابنته غير الشرعية (مازارين) حتى عشيقته التي فرض عليها حصاراً حتى أخيرات أيامه قبل أن يعترف ببنتها حسبما نشرت مجلة بارى ماتش في ذلك الحين.

يبقى أن تذكر أن أوروبا -بشكل عام- وفرنسا على وجه الخصوص لا تسعى إلى فرض نظام الأسر الحاكمة ويكاد تحرص على تقاديه، وهى تعنز كثيراً بثورتها التي حكمت سجن الباستيل الكبير، ورفض من شأن الطبقات الفقيرة على نحو ما أرخ ذلك فيكتور هوجو في قصة "البؤساء"، وهى تتعامل مع الظاهرة في لغوية إذا ما جاءت الأحداث بشكل طبيعي، لكن لا يمنع ذلك من استهجان عام من فكرة التوريث في السياسة

الملك هنري السادس أحد ملوك عائلة البوربون



حتى ولو جاء الأمر على صورة طموح ابن يرغب فى تقليد والده، وهو حق مشروع للأبناء الذين يرون أن من حقهم أن يقلدوا الأب فى كثير من السلوكيات وهى حالة ساراكوذى الأب والابن.. وإن لم يمنع ذلك بالاعتزاز بعراقة الأسر نوع ما ويممارسة أشكال من دنيا من الإقطاع- ليس بالضرورة الإقطاع السياسى.. مثل تباهى البعض بأن اسم العائلة مسبق بحرف (دى) فى إشارة إلى أصله الذى يعود إلى طبقة النبلاء أو الأرستقراطيين ومثل عائلة "داسو" التى تحتكر- تقريباً- صناعة الطائرات وهو ما يعطيها سطوة وقوة نافذة تجعلها تؤثر فى القرار السياسى الفرنسى.. وهناك من يتحدث عن "إقطاع إعلامى" ويعنى امتلاك بعض الأسر لأكبر نسبة من الأسهم فى جرائد مثل فرانس سوار التى يقال أن عائلة داسو هى التى تمتلكها..

باختصار: أن الإقطاع السياسى الذى تجسده الأسر الحاكمة، هو أفة عانت منها أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص وظلت ترزح تحت وطأتها قروناً طويلة، لكنها قررت أن تضع حداً له فكانت ثورتها التى رفعت الشعار الشهير "حرية، أخاء، مساواة" ولا يقلل من إرادة الشعب فى أن يمارس الديمقراطية وأن يحكم نفسه بنفسه عبر صناديق الاقتراع أن تكسر القاعدة إحدى الأسر فى مجال الاقتصاد، أو أسرة أخرى فى المستويات الدنيا من السياسة

فالتاريخ يؤكد أن الشعوب، تتطلع دائماً إلى الأمام ولا تلتفت كثيراً إلى الوراء إلا بما يدعم الرؤية نحو المستقبل.

## أهم المراجع

- 1- Ijas martin, il faut tuer de gaulle, edition du racher, paris 2002.
- 2- Nicolas sarkozy, la republique, les religions, l'esperance,
- 3- الحروب الصليبية (نصوص ووثائق) د. قاسم عبده قاسم- العربية للدراسات والنشر القاهرة ١٩٨٥ .
- 4- باريس فى سنوات الثورة- رأى تاناهيل (ترجمة الهام عثمان الزهراء للإعلام. القاهرة. بدون تاريخ.